أطروحة "تطبيع" المخدرات بين الشباب
الطرح النظرى والانتقادات الأساسية

محمود عبدالله*

يحاول هذا المقال إلقاء الضوء على واحدة من الأطروحات النظرية المهمة فى الخطاب العلمى الغربى، وهى أطروحة التطبيع (normalization thesis)، التى ذاع صيتها فى تسعينيات القرن الفائت. وتحقيقا لهذا الهدف، انقسم المقال لثلاثة أقسام: التعريف بأصول مفهوم التطبيع بصورة عامة وفى بحوث المخدرات على وجه الخصوص؛ والوقوف على أطروحة التطبيع ومؤشراتها الأساسية، وأخيرا التركيز على أهم الانتقادات التى وجهت للأطروحة على المستويين النظرى والمنهجى.

الكلمات المفتاحية: التطبيع، معدلات الانتشار، التعاطى، التجريب، الشباب.

مقدمة

حدث تحول كبير فى المجتمعات الغربية المعاصرة، جرى تعريفه بالتحول من القيم المادية إلى قيم ما بعد المادية، وفقا لما طرحه عالم الاجتماع الأمريكى الشهير رونالد إنجلهارت فى مسوحه المتتالية للقيم عبر العالم. فقد أوضح أن المجتمعات التى تخطت مرحلة التحديث، بقيمها المادية، ووصلت لمستويات من الثراء الواسع، الذى يجعل أفرادها أحرص على قيم جديدة تحفز الميل للمتع والترفيه عن الذات، أضحت على درجة عالية من التسامح مع التمرد والخروج على المألوف والسائد. ولذلك فهو يرى أن أفراد هذه المجتمعات أكثر تسامحا مع تعاطى بعض المخدرات والمواد المُسكرة. أى أن هذه المجتمعات تشهد قبولا اجتماعيا واسعا للتعاطى، وبخاصة لدى الفئات العمرية الشابة التى تميل لمنظومة قيم ما بعد المادية (Inglehart, 1997).

وفى السياق ذاته، يوجه زيجمونت باومان الأنظار إلى التحول الذى شهدته المجتمعات الغربية على مستوى الهوية، بنشوء ذات اجتماعية جديدة، تسعى خلف الملذات، أو بتعبيره جامع الأحاسيس sensations collector، وهو يقصد بذلك فردا مشغولًا بالتجارب والمغامرات والأسفار، وكل ما هو جديد.

* أستاذ علم الاجتماع المساعد بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.

يسعى لاهثا خلف التجارب المذهلة والممتعة أينما كانت. مما يؤسس ضمنا لشيوع الاستهلاك لكل المواد الجالبة للمتعة أيًا كانت، ومهما كانت المخاطر (Bauman, 2001).

لقد كان لهذا أثره فى إعادة التفكير فيما هو قائم. فإذا كانت، مثلا، نظرية الثقافة الفرعية الراسخة وبالذات لدى مدرسة شيكاغو، ترى أن المخدرات أشد ارتباطا بالطبقات المحرومة والفئات الاجتماعية المهمشة، أو أن ثقافة المخدرات هى ثقافة مسكوت عنها وتقف على هامش ثقافة الشباب الغربى؛ فإن ذلك غير قائم وفقا للمعطيات الواقعية القائمة. وهو ما التفتت إليه دراسات أطروحة التطبيع Normalization Thesis. ويبقى السؤال هنا، ما أطروحة التطبيع المزعومة، وما أصولها، وماذا تقدم على المستوى النظرى من رؤية للواقع الاجتماعى ولعالم المخدرات بين الشباب على وجه الخصوص، وماذا عن الانتقادات التى وجهت إليها. وللإجابة عن هذه الأسئلة، ينقسم المقال الحالى إلى ثلاثة أقسام: أصول مفهوم التطبيع، والتعريف بأطروحة التطبيع، وأهم الانتقادات التى وجهت إليها.

أولًا: أصول مفهوم التطبيع

بدأ مفهوم التطبيع فى الظهور فى حقل معرفى مغاير خارج بحوث المخدرات فى الخمسينات من القرن الماضى كجزء من الأدبيات المعنية بأوضاع ذوى الحاجات الخاصة الذين يعانون صعوبات التعلم. والتطبيع هنا هو عملية تكيف يمارسها المهمشون لتعديل أوضاعهم الدنيا. وكانت المحاولة النظرية المقدمة هنا تتعلق بتعزيز ذوى الحاجات الخاصة لمهاراتهم وصورهم الذاتية ليتماشوا مع الأوضاع القائمة وينالوا التقدير المجتمعى. وقد نبع هذا الفهم للمفهوم من التأثر بنظرية الوصم، ورؤية إرفنج جوفمان الذى جادل بأن الأفراد الموصومين قادرون على إخفاء وصمة العار التى يتعرضون لها (Sznitman, 2008).

ولكن مفهوم التطبيع أخذ فى التطور بطريقة أخرى. بحيث أصبح يعتمد على تصور بأن المستبعدين ليسوا أشخاصا سلبيين، بل يعتزون بهويتهم الذاتية. ومن ثم لا يتم التعامل مع السمات التى يراها المجتمع سمات سلبية، بذات المعيار المجتمعى، بل العكس هو الاستجابة المطروحة، أى الإصرار على الهوية الذاتية، وإقناع المجتمع بقيمة الاختلاف. وهو ما تجلى بشكل واضح فى تاريخ الحركة المدنية للسود الأمريكيين. فقد استقر مفهومان للتعامل مع مسألة دمج السود: الأول هو مفهوم التكامل، ويقوم على ضرورة أن يكون المهمشون متساوين مع غيرهم، ومتكاملين معهم على مستوى الممارسة، وقد ظل هذا المفهوم سائدا حتى نهاية الستينات. والثانى هو مفهوم الاختلاف، الذى أخذ فى الصعود أوائل السبعينات، وبدا واضحًا حضوره فى الأدبيات المعنية بالمهمشين (الأدبيات النسوية، وأدبيات ما بعد الاستعمار على وجه الخصوص). حيث كان هناك، على سبيل المثال، اتجاهان متميزان فى حركة

الحقوق المدنية السوداء. وينطلق هذا المفهوم من الحرص على الهوية الذاتية، أى الاعتراف بكون المهمشين جزءًا من المجتمع لكنهم مختلفون بخصوصياتهم الذاتية (Sznitman, 2008).

فيما تمثلت بواكير استعمال المفهوم وإرهاصاته فى سياق دراسات المخدرات فى أعمال ألفريد ليند سميث Alfred linde smith فى الأربعينات الذى سعى إلى طرح دراسة علمية للمدمنين بعيدًا عن إصدار أى أحكام قيمة مسبقة. وقد تتلمذ ليند سميث فى جامعة شيكاغو وتفاعل مع أعضاء رئيسين فى مدرسة شيكاغو، مما مكنه من فهم نظرية التفاعل، التى أكدت الدور الحاسم للعمل الميدانى والتعمق فى معالجة البيانات الكيفية. مما ساعده ذلك على دراسة متعاطى المخدرات فى محيطهم الطبيعى استنادا إلى دراسة الحالة؛ لبناء فهمه للحياة الطبيعية للمتعاطين. فقد ركزت مدرسة شيكاغو على تطبيق أساليب البحث الكيفى فى فهم السياق الاجتماعى والثقافى للأفعال والمعانى الاجتماعية، دون رد ما يقوم به الشباب من أفعال وسلوكيات إلى أعراض القصور والاختلال النفسى. فينطلق التحليل من حياة الناس وثقافتهم فى بيئتهم، وفهم السلوكيات فى سياق الحياة الطبيعية الاجتماعية – أى فى ضوء وضعية الفرد داخل البناء الاجتماعى ووفقًا لعلاقته بالمجتمع (Blackman, 2010).

ولقد أخذ ليند سميث على عاتقه أن يقوم بنقد التصورات السائدة عن المدمنين؛ تلك التصورات التى تعاملت مع المدمنين على أنهم وضيعون أو غير طبيعيين. بعبارة أخرى أخذ يتولى دور المدافع عن جماعة مضطهدة ثقافيا (Sznitman, 2008).

ففى مقال له حول مدمن المخدرات، يوجه ألفريد ليند سميث نقده لنظرية سادت عصره، حيث تتحدث النظرية عن أن الناس يصبحون مدمنين لأنهم أقل شأنا أو غير طبيعيين، ولأن المخدر يوفر لهم دعما مزيفا أو وسيلة للهروب من مشاكلهم. فأكثر حالات الإدمان خطورة، برأيه، هى نتاج اضطرابات عقلية وعصبية وإرادة ضعيفة وهشة (اعتلال نفسى)، اضطرابات عميقة الجذور داخل الفرد. وينتج المخدر شعورا بالنشوة والسعادة؛ يبعده عما يعتريه من صراعات داخلية ومخاوف عقلية (Linde smith, 1940). واستند سميث فى نقده إلى أن الدراسات المعنية لم تقم بإجراء دراسة مقارنة بين المدمنين وغير المدمنين لإثبات سمة "الشذوذ" abnormality على المدمنين قبل إدمانهم وبعده. فلم تتوافر هذه الدراسات على معلومات وافية عن المدمنين قبل الإدمان (Linde smith, 1940).

ولقد أصبح ما طرحه ليند سميث تجاه دراسة المتعاطين محوريًا للجيل القادم فى مدرسة شيكاغو فى الخمسينات والستينات من القرن الماضى. وبذلك أصبحت دراسات هوارد بيكر المبكرة حول تعاطى الماريجوانا جزءًا من المنظور النظرى الجديد لنظرية الوصم الذى قدمه فى دراسته المعنونة بـ"المهمشون".

فقد ركز فى هذه الدراسة على ملاحظة المشاركين. وتعتبر هذه الدراسة مثالا باكرا أيضًا على تطبيع المخدرات (Blackman, 2010).

ثانياً: التطبيع فى بحوث المخدرات المعاصرة

إن دراسة هوارد باركر وزملاؤه هى التى تعتبر باكورة إنتاج هذا النوع من البحوث. واعتمدت الدراسة فى الأساس على سنوات عمل امتدت لخمس سنوات. وكانت العينة من شباب تراوحت أعمارهم ما بين ١٤-٢٥ عاما يعيشون فى شمال إنجلترا. وقد سعى البحث للتعرف على توجهات وسلوكيات ثمانمائة شاب تقريبا. والغاية هى تفسير الزيادة الملفتة فى تعاطى المواد المخدرة غير الشرعية فى ضوء نتائج البحث والأدبيات السابقة. ومع ذلك لم يكتف الباحثون بالانشغال بسلوك التعاطى، لكنهم تجاوزوا حدود ذلك للتعرف على تصورات الشباب حول التعاطى والمتعاطين، وما طرأ من تغيرات على إتاحة المخدرات وتحول أسلوب ملء وقت الفراغ. وبهذا يتم تجاوز التفسيرات الطبية التقليدية لمعدلات الانتشار، ليشمل البحث التغير الثقافى وما حدث من تحول دال فى القيمة الرمزية للتعاطى كممارسة ثقافية ذات طابع خاص(Sznitman, 2008).

وتعتبر هذه الدراسة هى البداية التى رسمت حدود الاهتمام بالتطبيع، فهى بمثابة الدراسة النموذجية. وقد تم فيها تتبع المبحوثين من الشباب خلال فترة زمنية محددة، وهى خمس سنوات، بدأت وهم فى سن الرابعة عشرة حتى الثامنة عشرة (خلال الفترة من ١٩٩١-١٩٩٥). وكانت الغاية هى التعمق فى الأسباب التى ساهمت فى معرفتهم المتزايدة بالمخدرات، وأسباب ضعف العوامل الهيكلية المتعددة على المستويين الاقتصادى والاجتماعى فى التأثير فى انتشار الظاهرة، ولماذا يتم التغاضى عن التعاطى بدلا من إدانته (Parker & et al, 2002).

وبناء على البيانات الكيفية والكمية انتهى الباحثون إلى أن المخدرات لم تعد فى عيون الشباب ورؤيتهم ممارسة انحرافية بل حدث "تكييف ثقافى لما هو غير شرعى"، مما يشير إلى وجود تسامح متنامى تجاه تعاطى المواد المخدرة بغرض المتعة. وبهذا المعنى انتقل التعاطى من كونه ممارسة هامشية داخل ثقافة الشباب، التى تعتبر ثقافة فرعية داخل الثقافة العامة للمجتمع، إلى ممارسة سائدة فى أسلوب حياة الشباب وآليات تعبيرهم عن هويتهم. مما معناه أن دلالة التعاطى قد تحولت من مصدر للوصمة إلى معنى مرتبط بما هو سائد (Sznitman, 2008).

فلقد شهدت فترة التسعينات من القرن العشرين، فى بريطانيا على وجه التحديد، ارتفاعًا غير مسبوق فى استخدام الشباب للمخدرات بغرض الترفيه. واحتل تعاطى المخدرات بين الشباب مكانة متقدمة على جدول أعمال الساسة، وأدى ذلك إلى العمل على وضع سياسة جديدة للوقاية من المخدرات، وبلغت

النفقات السنوية نسبة قدرها ١,٤ مليار جنيه إسترلينى بهدف الوقاية من المخدرات ومشاكلها. ومع ذلك، فإن هذه الجهود الوقائية لم تحد من الانتشار. فقد كان ستة أفراد من كل عشرة شبان قد جربوا المخدرات فى سن السادسة عشرة. وربما يعتبر السبب الرئيس فى ضعف هذه الجهود يتمثل فى اختزال الوقاية فى التثقيف الصحى للشباب مع تجاهل تعقد المشهد الاجتماعى ككل. ذلك أن هذه الزيادة فى تعاطى المخدرات غير المشروعة خلال التسعينات هى فى الواقع كانت جزءا من عدة عمليات "هيكلية" أوسع (Aldridge, Parker & Measham, 1998).

لقد بدأت معدلات التعاطى فى صعود. وهو ما أوضحه أحد الباحثين من خلال مراجعته للإحصاءات التى استخلصها من عدد من استطلاعات الرأى وبحوث السوق والبحوث الأكاديمية التى أجريت خلال فترة زمنية كبيرة منذ عام ١٩٦٤ فصاعدا. وخلص إلى أن معدل الانتشار بين الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و٢٤ عاما قد ارتفع طرديا من أقل من ٥٪ فى الستينات إلى حوالى ما بين ٥-١٥٪ فى السبعينات، وبلغ فى الثمانينات ما بين ١٥-٢٠٪ مما يعنى أن المعدل يتزايد بالضعف مع كل عقد يمر. وهو ما تأكد فى دراسات لاحقة أكدت هذا التصاعد بحلول النصف الأول من التسعينات (Aldridge, 2008).

أصبح التعاطى منتشرا بشكل واسع، كاسحا فى طريقه الحدود السابقة، والعلامات الإرشادية المعتادة فى وصف ظاهرة التعاطى. فلم يعد المتعاطون الشباب يأتون من طبقات مهمشة أو يمكن القول بأنهم من الذكور فقط، أو أنهم يأتون من أسر سيئة السمعة، أو أن المتعاطين يعانون الفشل الدراسى. بل إنهم على النقيض، يأتون من خلفيات اجتماعية متنوعة. فلم يعد الأمر مقتصرا على أبناء الطبقات الاجتماعية الدنيا والمهمشة. ولم يعد هناك سمات منبئة بالامتناع عن التعاطى والحماية منه مثل النوع؛ والانتماء للطبقة الوسطى ولأسر حسنة السمعة؛ والتفوق الدراسى (Aldridge, Parker & Measham, 1998).

حدد باركر ستة مؤشرات يقاس على أساسها درجة التطبيع فى مجتمع الدراسة:

- زيادة إتاحة المواد المخدرة فى المجتمع وسهولة الحصول عليها.
- زيادة انتشار تعاطى المواد المخدرة.
- زيادة التوجهات المتسامحة تجاه التعاطى بين المتعاطين وغير المتعاطين.
- وجود توقعات لدى الممتنعين عن التعاطى الحاليين بمعاودة التعاطى مستقبلا.
- التكييف الثقافى لثقافة المخدرات فى الأفلام والموسيقى والبرامج التلفازية الموجهة للشباب.
- التحول صوب السياسة الأكثر ليبرالية (Duff & et al, 2012).

إزاء هذه المؤشرات، يمكن الحديث عن عدد من العوامل المؤسسة لنشوء التطبيع. يقف على رأس هذه الأسباب سياسة المخدرات Drug policy. فقد حدث تحول فى سياسات بعض الدول تجاه تجريم التعاطى والحيازة. على سبيل المثال، قامت هولندا بالسماح بزراعة محدودة للقنب، وتداولها فى المقاهى وفق شروط تفرضها على أصحاب المقاهى. ولكن أدى قيام هولندا بإلغاء تجريم بيع كميات صغيرة من القنب إلى نمو تجارة المخدرات فى المقاهى. لقد تم افتتاح هذه المقاهى لأول مرة منتصف السبعينات، لكن التغيير فى القانون يعود إلى أوائل الستينات. ولذلك اتُهمت الحكومة الهولندية بتشجيع سياحة المخدرات، وبالفعل يعتبر ما قامت به الحكومة أحد العوامل الرئيسة فى تطبيع القنب. كذلك فإن سياحة المخدرات المعاصرة الآن ترتبط بقوة بالفرص التجارية التى يتيحها التحرير المتزايد لقوانين المخدرات. ووفقًا لما ذكره أحد الباحثين، قامت بعض الدول الأوروبية، لاسيما هولندا والبرتغال، بإلغاء تجريم حيازة كميات صغيرة من القنب. وقد تم ذلك عن طريق استبدال العقوبات الجنائية بالعقوبات المدنية، أو بإدخال سياسة رسمية مكتوبة للتسامح مع توزيع وحيازة كميات محدودة من المخدرات كما فى الحالة الهولندية (Blackman, 2010).

ولكن دارسى التطبيع يحرصون حال وصفهم للسياسة المتبعة، سواء أكانت سياسة تحرير، كالحالة الهولندية، أو سياسة حظر كالحالة البريطانية، أن ينتبهوا إلى عملية التثقيف الصحى، التى لها أهمية كبيرة فى التوعية بالمخاطر المترتبة على التعاطى. إن هذه العملية برأيهم ينبغى أن تأخذ فى اعتبارها تعقد مشهد التعاطى. فلا ينبغى التعامل مع الشباب باعتبارهم وحدة واحدة، مجموعة متجانسة من المتلقين. فهناك فئات متعددة للشباب. ولكل فئة احتياجاتها وتساؤلاتها وأهدافها المتعددة. وتنقسم فئات الشباب المستهدفين بالتثقيف إلى عدة مسارات تمثل فى مجموعها مسارات الانتقال من مرحلة إلى أخرى فى رحلة التعاطى. ولقد تم تحديد أربعة مسارات، تحددت فى ضوء عدة معايير: الموقف من المخدرات ومحاولة التعاطى، والانتظام فى التعاطى من عدمه، وحالة المخدرات المختارة ذاتيا، ونية الاستمرار فى التعاطى مستقبلا. فكانت الفئات على النحو التالى:

- الممتنعون: وهم الذين لم يجربوا أبدًا أى نوع من أنواع المخدرات ولا ينوون فى الوقت الحالى تجربتها مستقبلا. كما أنهم يحملون مواقف مناهضة للمخدرات نسبيًا.
- المتعاطون السابقون: من جربوا مخدرا، غالبًا على سبيل التجريب، لكنهم لا ينوون القيام بذلك مرة أخرى. ولديهم موقف سلبى نسبيًا تجاه تعاطى المخدرات.
- المتعاطون "فى المرحلة الانتقالية": وهم مجموعة المتعاطين الذين جربوا مخدرا وقد يجربونه فى المستقبل. ولديهم مواقف مؤيدة تجاه تعاطى المخدرات.

- المتعاطون الحاليون: المنتظمون فى التعاطى ولديهم موقف إيجابى تجاه التعاطى، ويعتزمون مواصلة ذلك التعاطى مستقبلا (Aldridge, Parker & Measham, 1998).

علاوة على أهمية عامل التثقيف، فإن حدود ثقافة المخدرات فى الثقافة السائدة فى المجتمع مسألة لها وقعها فى عملية التطبيع. فكلما جرى تمثل ثقافة المخدرات فى الثقافة العامة، دل ذلك على انتشار العملية. ولعل أبرز علامات هذا التمثل الثقافى هو استغلال ثقافة المخدرات فى الترويج الاقتصادى للسلع. فقد مثلت الإعلانات آلية من آليات تطبيع المخدرات وترسيخ ثقافتها فى عقول المشاهدين ونفوسهم. فقد استخدمت بعض الشركات ومنها شركة فابيرج Faberge وإيف سان لوران Yves Saint Laurent وفيرجين Virgin وبودى شوب Body Shop، وسونى Sony وفيلا Fila صورًا للعقاقير لتسويق منتجاتها، بغض النظر عما إذا كان هناك أى ارتباط بين منتجها وتعاطى المخدرات. هنا تكون المخدرات وسيطا بين المنتجين والمستهلكين. فلقد جرى التلاعب بالتصورات التى يحملها الشباب فى أذهانهم عن المخدرات لترويج السلع التجارية. بحيث يتم تقديم منتجات القنب، فى الإعلانات التجارية، كسلعة عادية إلى جانب السلع العادية كالشامبو أو الكريم (Blackman, 2010). والمثال الذى يوضح هذا الاستغلال؛ ما قامت به شركة سيجا Sega من وضع إعلان لها فى واحدة من مجلات الكمبيوتر، وكان العنوان الرئيس للإعلان هو "سجل سرعة أعلى" Score Some Speed بأحرف كبيرة، مع ظهور عبارة "من تاجر بالقرب منك" from a dealer near you فى موضع آخر من الإعلان. على الرغم من أن الإعلان هو تعبير بلاغى عن القيادة بسرعة، إلا أنه مثال مشتق من ثقافة المخدرات. فالجمع بين الكلمات "أحرز" و"السرعة" و"التاجر" تجعل الإعلان مرتبطًا بشكل كبير بثقافة المخدرات وبشكل هامشى بالمنتج المعلن عنه. وفى عام ١٩٩٨، وضعت شركة سونى Sony Computer ملصقًا ظهر فى مجلة بلاى ستيشن البريطانية الرسمية الخاصة، أظهر الإعلان صورة لمتزلج على الجليد بجوار قطعة من ورق مفكرة مكتوب فيها رسالة بخط اليد تقول ما يلى: مسحوق .. أحتاج إلى مسحوق. يتألم جسدى ويصرخ بحثًا عن مسحوق. عندما أحصل عليه، يسري الدم فى عروقى مندفعا، أكون منتشيا حقًا. أطير فى الهواء بعيدًا عن الواقع، ثم أبدأ فى النزول. أحتاج إلى القيام بذلك مرة أخرى فورا. أحتاج إلى الوصول إلى مستوى أعلى من آخر مرة لى لأكون فوق الغيوم فى السماء. لقد هبطت مثيرا ضجة من حولى. لقد تحطمت... وما من ألم." فيما ينص الركن الأيسر من الإعلان على ما يلى: "إنها أروع لعبة على وجه الأرض مع وجود لاعبين، وبايب وحقيبة هوائية". يظهر الإعلان مجموعة مختارة بعناية من الكلمات التى توحى بمعان مزدوجة عمدا. فتشير الكلمات المستخدمة مثل "مسحوق" و"اندفاع" و"طنين" وما إلى ذلك للصور الذهنية المصاحبة لفعل التعاطى (Blackman, 2004).

كذلك لا تخلو الدراما والمسلسلات التلفزيونية من مشاهد التعاطى فى المناسبات وأوقات الراحة. كما تعتبر بعض الموضوعات ذات الصلة بالمخدرات مصدر إلهام للكوميديا الارتجالية والأفلام الموجهة للشباب. كذلك يتم وصف التعاطى فى الأفلام وموسيقى البوب بلغة محايدة. كما يدلى كبار الساسة باعترافهم بتجربتهم للمخدرات، علاوة على اعترافات نجوم الفن الكبار وذائعى الصيت بين الشباب وفى المجتمع (Parker, 2002).

هذا إلى جانب اتساع سوق المخدرات على نحو كبير بسبب العولمة. وقد ساهمت الهجرة والتحضر ومؤشرات التحديث فى زيادة وسعة هذا السوق. وهو ما ذكرته إحدى الدراسات التى تناولت انتشار القنب فى مدينة نيجيرية؛ حال إشارتها لدور الهجرة والتحضر السريع، كمؤشرين على نمو عملية التحديث، إلى اتساع سوق المخدرات. فقد كان مجتمع الدراسة عبارة عن مدينة ترانزيت تربط مدينتين أخريين. والمدينة تشهد نموًا حضريًا متزايدًا بسبب تدفق الناس من مختلف المدن والبلدات والقرى المحيطة بها بحثًا عن التعليم العالى وعن العمل فى الوظائف العليا. كما تشير الدراسة إلى دور العوامل الثقافية فى الإقبال على تلك الأسواق. حيث تسهم الطقوس الثقافية فى تلك الزيادة المفترضة فى رفع معدل الطلب. إذ يستعمل القنب، مثلا، فى إعداد الطعام وكعك عيد الميلاد. كذلك تلعب التصورات الجاهزة عن المخدرات فى استمرارية زيادة معدل الطلب، فى ظل إنكار المخاطر المترتبة على التعاطى. فقد أظهرت الدراسة أن المبحوثين يرون القنب "شيئا طبيعيا"، ولا يتسبب فى أى ضرر، يعانيه متعاطيه (Dumbili, 2020).

إجمالا، يمكن القول بأن التحولات التى شهدتها المجتمعات الغربية، تجاه العولمة ورسوخ قيم ما بعد الحداثة وما بعد العلمنة، قد ساعد على بزوغ التقبل الاجتماعى للتعاطى. فهناك عدد من المؤشرات التى تؤكد تأثيرات الظروف ما بعد الحداثية على عالم المخدرات(Parker, Measham & Aldridge, 1995):

أولاً، تبين ضعف تأثير عامل النوع فى تعاطى المخدرات. فلم يعد الذكور فقط هم الأكثر تعاطيا مقارنة بالإناث. حيث كان فى الماضى فجوة بين الجنسين كشفت عنها الدراسات المسحية فى السبعينات والثمانينات. فقد كان هناك أنثى بين كل ثلاثة أو أربعة ذكور، ذكرت بأنها حاولت تعاطى المخدرات. هذه الفجوة بين الجنسين أخذت تضيق فى مرحلة المراهقة. وكذلك فإن الطبقة الاجتماعية، التى كانت ذات يوم متغيرًا رئيسًا فى فهم الانحراف، لم تعد مؤشرًا أوليًا لتعاطى المخدرات غير المشروعة.

ثانيًا، يوجد تأثير للاقتصاد العالمى فى توفير المخدرات غير المشروعة فى الفضاء الاجتماعى الذى يشغله الشباب – وذلك فى المدرسة، والشارع، ومنازل الأصدقاء، والحانات، والنوادى، فأصبح تناول المخدرات أمرًا شائعًا. هذا التداخل بين أسواق المنتجات ذات التأثير النفسانى القانونى وغير القانونى وربما يكون شرطًا أساسيًا لأنماط تعاطى المخدرات المتعددة التى تطورت بسرعة.

ثالثًا، استيعاب استخدام المخدرات غير المشروعة أو دمجها فى ثقافة الشباب "الرسمية". فى الواقع، فإن رؤية ثقافة الشباب المعاصرة على أنها متأثرة بعمق بثقافات المخدرات هى حجة قوية. حيث انتقلت المخدرات من كونها ثقافة فرعية لتصبح جزءًا من ثقافة الشباب السائدة. وهو ما تبين بالاطلاع على التجليات العديدة لثقافة الشباب: مجلات الشباب، والموسيقى وسوق الموضة. فإحدى المجلات الشبابية تتضمن مقالة معلومات عن المخدرات تعرض مخدرات غير مشروعة محددة (مع آثارها الإيجابية والسلبية) وذلك فى كل عدد. وهناك أيضًا مقالات تناقش المزايا النسبية للمخدرات التى يتم تعاطيها فى صالات الرقص. علاوة على إدراج مفردات لها علاقة بالمخدرات فى عناوين الأغانى والموسيقى التصويرية للإعلانات التلفزيونية والبرامج الرياضية. علاوة على تدشين لغة شبابية لها علاقة بالتعاطى.

رابعًا، يمكن رؤية تأثير "الحداثة" فى انهيار الفروق بين المواد المشروعة وغير المشروعة فى الحياة اليومية. فيقوم الشباب بوصف التأثيرات النفسية المتصورة لكل من الكحول والمخدرات غير المشروعة باستخدام ذات الكلمات.

يشير أحد الباحثين إلى هذا التحول الذى طرأ على حياة الشباب الأوروبى، فيقول بأن هذا العصر ما بعد الحداثى قد شهد اتجاهات جديدة فى تعاطى المواد المخدرة بين الشباب. حيث يحافظ الشباب البريطانيون على معدلات تدخين عالية ويشربون كثيرًا من الكحول ويحرصون على تعاطى المخدرات لأغراض ترفيهية فى أماكن محددة. وتقريبًا كل الشباب البريطانيين يشربون الكحوليات بانتظام، خاصة فى عطلات نهاية الأسبوع. فقد تضاعفت كميات الكحول المستهلكة. كما أن هؤلاء الشباب هم أكثر متعاطى المخدرات فى أوروبا، وأكثر من نصفهم، جربوا مخدرا على الأقل بحلول مرحلة البلوغ، فثلثهم شارك فى التعاطى منذ مرحلة المراهقة المتأخرة حتى منتصف العشرينات من العمر. كذلك لم تعد العوامل الهيكلية ذات تأثير، سواء أكان عامل المهنة، أو النوع الاجتماعى، أو عامل الانتماء للريف أو الحضر (Parker & Egginton, 2002).

ثالثاً: أهم الانتقادات

أثارت أطروحة التطبيع بأبعادها النظرية والمنهجية ردود أفعال واسعة بين دارسى المخدرات، خاصة لخطورة ما تطرحه فى ظل المجتمع البريطانى الذى يمارس سياسة حظر شامل. ولقد تمثلت أهم الانتقادات فى: صعوبة تعميم النظرية على كل السياقات المحلية، عدم الاعتداد بالتأصيل التاريخى للظاهرة، إيديولوجية الطرح النظرى وقصور الرؤية المنهجية، عدم دقة وصف السياق الاجتماعى.

١- التباين عبر السياقات المحلية

لا شك أن هناك صعوبة فى تعميم أطروحة التطبيع على كل المجتمعات. ولذلك ولدت شكوك لدى بعض الباحثين بشأن إمكانية انطباقها على مجتمعاتهم، على الرغم من ظهور بعض مؤشرات ما بعد الحداثة وثقافتها، وبزوغ قيم ما بعد المادية، والاستقلال الفردى. على سبيل المثال، يقل تأثير عامل الاستقلال الفردى فى مجتمعات شهدت مرورها بالتحديث فى أعلى صوره، نظرًا لقوة العائلة. ذلك أن الثقافة الغربية ثقافة يحتل فيها الفرد موقعا مركزيا فى المجتمع، حيث يثمِّن المجتمع الاستقلال الفردى، وأن يتحمل الفرد مسئولية نفسه، فيما يصعب أن نجد ذلك فى بعض المجتمعات الآسيوية. على سبيل المثال، وجدت دراسة أجريت فى هونج كونج أن التطبيع ليس له وجود كبير فى ثقافة هونج كونج. وأرجعت الدراسة ذلك إلى أن الثقافة الصينية لا تزال هى المهيمنة. وفى هذه الثقافة الصينية، غالبًا ما يتم قمع المصالح الفردية لتسهيل المصالح الجماعية، وخاصة مصالح الأسرة. فمنذ الطفولة، يتعلم الفرد أن يكون خاضعًا ومطيعًا ومنضبطًا. ومع نشوء الشباب فى الثقافة الصينية وتربيتهم على قيمها العليا، قد لا يثمن هؤلاء الشباب الاستقلال الفردى مثلما يفعل أقرانهم فى الغرب. ولذلك عندما يحاط الشباب فى هونج كونج بالمخاطر، كما هى الحال بالنسبة لخطر البطالة أو تعاطى المخدرات، فإن الأسرة تعمل كجماعة دعم اجتماعى مهمة بحيث تساعد الشباب فى التعامل مع حالة عدم اليقين القائمة. وبالتالى فإن تأثيرات عقلية المجتمع المحفوفة بالمخاطر على تعاطى المراهقين للمخدرات فى هونج كونج قد لا تكون قوية مثل تلك الموجودة فى الغرب (Cheung & Cheung, 2006).

٢- غياب التأصيل التاريخى للظاهرة

يعيب شين بلاكمان S. Blackman على منظرى أطروحة التطبيع على اهتمامهم بالسياق التاريخى. ولذلك حاول من جانبه أن يؤصل لها بالعودة للأصول والجذور التاريخية لها (Blackman, 2004)، مؤكدا أن بعض المواد المخدرة كان تعاطيها ميسورا كجزء من الطقوس والعادات الاجتماعية والدينية لدى الشعوب القديمة. ذلك أن القنب والأفيون كانا راسخين فى الثقافات والمجتمعات القديمة قبل ظهور الديانة المسيحية بوقت طويل. حيث يوجد فى الصين تاريخ مستمر لزراعة القنب لنحو ٦٠٠٠ عام. فقد كان له استعمالات عديدة، منها ما يتصل بالاستعمالات الطبية، وصناعة الورق (حيث عثر فى مقبرة صينية قديمة على هذا النوع من الورق المصنوع من القنب)، والترفيه، والسحر، والطقوس الدينية (للتواصل مع الأرواح). كذلك داخل الثقافة الهندية، كان يُنظر إلى القنب على أنه مقدس، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعرافة. والحال كذلك فى المجتمع اليونانى وفى ثقافته. حيث يرد فى ملحمة الأوديسا لهوميروس وصفا لعقاقير مرتبطة بالخداع والخوف والرفاهة، وخوض تجارب متناقضة، وتتعاطى الشخصيات الأسطورية المواد المخدرة مما يؤدى

إلى عدم اكتراثها بما يحدث من حولها وعدم القدرة على التحكم فى مشاعرها أو أفعالها أو عقولها. ومن تلك المشاهد الملفتة، ما ورد فى الأوديسا من أن الملكة هيلين تضع مادة اسمها نيبينث nepenthe للمحاربين اليونان الذين أنهكتهم المعركة. "وصبت هيلين قطرات من طيب مذهب للأحزان فى كأس تليماك وكأس صاحبه، لا يعرف من يذوقها إلى الأسى من سبيل... أهدتها إلى الملكة زوجة زون الأميرة المصرية بوليدامنا". (هوميروس، ٢٠١٣). كما ينقل عن ليفنتال أن " الأفيون فى المدن اليونانية فى ذلك الوقت، كان يباع على شكل كعك الأفيون والحلويات وكذلك مشروبات الأفيون الممزوجة بالنبيذ".

٣- إيديولوجية الطرح النظرى وقصور الرؤية المنهجية

هناك من ينتقد الطرح النظرى حول التطبيع انطلاقًا من كونه طرحا إيديولوجيا، يختزل ظاهرة التعاطى، ويحمل تحيزا وتوجها متعاطفا مع فعل التعاطى ذاته. بل ويصفه بالخطورة، وبكونه تعبيرًا عن خطاب سائد، أقدامه راسخة فى الإعلام والمجتمع : "لقد أصبح هناك خطاب سائد فى المجتمع البريطانى، يؤكد على شيوع المخدرات بين الشباب، ويروجه نجوم موسيقى البوب وبعض الصحفيين الذين يعملون فى صحف خارج التيار السائد. وهو يعكس عقيدة سائدة بين كثير من الأكاديميين والمختصين العاملين فى حقل المخدرات" (Shiner, 2000).

ربما يُلمِّح هذا النقد ضمنا إلى رفض بطبيعة المنهجية المتبعة. فالباحثون يتبنون أصوات المبحوثين، ويحاولون نقل خبراتهم بشأن المخدرات التى يتعاطونها، سواء أكانت تجارب إيجابية أو سلبية. ذلك أن "الباحثين فى الدراسات الإثنوغرافية يدعون بأن بحوثهم تسترشد بالمبحوثين أنفسهم. لهذا قد يجد المُحرّمون للمخدرات هذا النهج غير مقبول أو إيديولوجى"(Blackman, 2004) فباحثو النظرية ينطلقون من تراث التفاعلية الرمزية، الذى يعتمد فى أطروحاته على بحث ودراسة رؤى الفاعلين وخبراتهم اليومية بحياد تام وموضوعية ودون إصدار أحكام قيمية عليها، أو بتعبير هوسرل وضعها بين قوسين. ووجه الانتقاد هنا أن عرض رؤى المتعاطين يوحى بأن هذه الحقائق، فعندما يقول المتعاطون بأن المخدرات سائدة بين الشباب، يتم التعامل مع ما قيل على أنه الحقيقة، والأمر على غير ذلك (Blackman, 2004).

٤- دقة وصف السياق الاجتماعى

ويقع عدم الدقة فى الوصف فى مسارين. الأول هو وصف السياق فى عمومه، أى القول بأنه حالة ما بعد الحداثة. والثانى، وله صلة وطيدة بالأول، يتعلق بإهمال دور العوامل الهيكلية. ويعول المتشكك على عدم دقة الاعتبار بعامل التغيير الذى أصاب المجتمع البريطانى نتيجة لعدد من الاعتبارات ذات الصلة بالتحول إلى مجتمع ما بعد الحداثة. حيث يرى أن بعض الباحثين يترددون فى التأكيد على وجود قطيعة

مع عصر الحداثة، وانطلاق مجتمع ما بعد الحداثة، على الرغم من اعترافهم بوجود تغيرات قد جرت مياهها هنا أو هناك، إلا أنهم فى وصفهم للمجتمع فى صورته الحالية لا يصفونه بمجتمع ما بعد الحداثة. منهم أنتونى جيدنز الذى يصفه بمجتمع الحداثة المتأخرة أو العليا، وكذلك أورليتش بيك الذى يصفه بمجتمع الحداثة الانعكاسية (Shiner & New burn, 2000).

وهناك من يرى أن هناك علاقة واضحة بين العوامل الهيكلية (الاجتماعية والاقتصادية إلخ) وأنماط استهلاك المخدرات. فالشباب المحروم هم الأكثر انتظاما فى التعاطى، والأكثر تنويعا فى عدد المواد المخدرة التى يتعاطونها. ذلك أن العيش فى منطقة فقيرة ومحرومة، وقضاء وقت الفراغ بالشوارع يجعل هؤلاء الشباب أكثر عرضة للتواصل مع المتعاطين فى سن باكرة. وبالتالى لديهم خبرة بالمخدرات تختلف عن غيرهم، سواء فى الآثار التى يعانونها من جراء التعاطى، أو شبكة العلاقات التى يقيمونها فى الشارع مع المتعاطين، أو فى تحديد نوعية المخدر الذى يتعاطونه. كما أنهم يتعرضون بشكل كبير للأقراص المخدرة التى تؤخذ طبقا لوصفة طبية، لتوافرها ورخص ثمنها. فالتكلفة بالنسبة لهم عامل مهم فى اتخاذ القرار. وهذا بدوره يؤسس لمفهوم التطبيع المتباين، أى أن التطبيع مرهون بعوامل بعينها، لا يجعله صيغة عامة مهيمنة على الشباب ككل، بل يرتبط كذلك بنوعية بعينها من المخدرات دون غيرها (Shildrick, 2001).

فيما ينشغل آخرون برؤية أخرى. يرون فيها التطبيع فعلا يتجاوز فئة الشباب. فالظاهرة لا تقتصر على مرحلة عمرية معينة، كما هى الحال فى البحوث التى أجريت فى المحاولات البحثية الأولى، حينما اقتصرت على المراهقين والشباب، ولم تتوسع حدود الدراسة لتشمل البالغين وكبار السن. فليست الظاهرة "ظاهرة شبابية". حيث ينبغى أن يتسع مدى الدراسة ليشمل المجتمع على اتساع فئاته العمرية المنظورة، وإلا ستكون حدود النظرية قاصرة ومحدودة (Erickson & Hathaway, 2010).

خاتمة

لا شك فى أهمية النتائج التى طرحتها أطروحة التطبيع فى رصدها للتغيرات التى طرحت فى ثقافة الشباب المعاصر. لقد استطاع الباحثون الذين عملوا معا على إبراز هذه الأطروحة طوال عقد كامل وما يليه؛ أى طوال التسعينات وما بعدها، أن يوضحوا فى الآن ذاته أحوال الواقع الاجتماعى البريطانى والغربى فى عمومه. فكان عالم تعاطى المخدرات نافذة على واقع الشباب، وتحولات الواقع الثقافى والاجتماعى، مع بزوغ قيم الاستقلالية الفردية، باستقلال الفرد عن ضغوط العائلة والتقاليد والتراث، واعتماده على الدولة والسوق فى كسب قوت يومه وتشكيل هويته اليومية المتقلبة مع تقلب الأحوال. وهو ليس نافذة على الواقع الحالى فحسب، بل واحتمالات المستقبل القريب.

ويبقى فى الأخير التأكيد على أن الانتقادات الموجهة للأطروحة، قد ركزت على ثلاثة أبعاد نظرية ومنهجية ينبغى بحق الالتفات لها عند التطبيق على المستوى المصرى والعربى: أولها الوصف الدقيق لسمات المجتمع القائم وموقع ثقافة الشباب فيه، وثانيها الاهتمام بالأبعاد المنهجية وموضوعية التحليل والتأكد من صدق البيانات المطروحة دون الانجراف بتبنى رؤى المبحوثين. وثالثها أن غياب قيم من قبيل الاستقلال الفردى وهشاشة عملية التحديث، لا يعنى بالضرورة غياب الأطروحة. وأخيرًا ضرورة الالتفات إلى دور عامل عدم المساواة الاجتماعية الذى نجد أثره فى تأثير عوامل الطبقة والنوع والعمر على طوابع الانتشار وحدوده وآفاقه المحتملة فى المستقبل. وينبغى الإشارة أخيرا إلى أن عملية التطبيع ليست مرهونة بشروط سوسيولوجية بعينها، كما لا تقتصر على مخدر أو مادة محددة، فهذه المسألة مرهونة بحدود الثقافة ومقتضيات الواقع الاجتماعى.

المراجع والهوامش

هوميروس، (٢٠١٣) الأودية، دريني خشبة (مترجمًا)، دار التنوير.

Aldridge, J., Parker, H., & Measham, F. (1998). Rethinking Young People's. Drug use. Health Education (5), 164.

Aldridge, J. (2008). Decline But No Fall? New millennium Trends in Young People's use of Illegal and Illicit Drug in Britain. Health Education, 108 (3), 190.

Bauman, Z. (2001). The Individualized Society. Polity Press, Cambridge.

Blackman, S. (2004). Chilling Out. The Cultural Politics of Substance Consumption. Youth and Drug Policy, open University Press.

Blackman, S. (2010). Youth Subcultures Normalisation and Drug Prohibition. The Politics of Contemporary Crisis and Change?. British Politics, 5 (3), 345-346.

Cheung, N., & Cheung, Y. (2006). Is Hong Kong Experiencing Normalization of Adolescent Drug Use? Some Reflections on the Normalization Thesis. Substance Use & Misuse, 41 (14), 1979.

Duff, C. & et.al. (2012). A Canadian Prespectiveon Cannabis Normalization Among Adults. Addiction Research and Theory, 20 (4), 272.

Ingle hart, R. (1997). Modernization and Post Modernization Culture, Economic, and Political Change in 43 Societies Princeton University Press.

Erickson, P. & Hathaway, A. (2010). Normalization and Harm Reduction. Research Avenues and Policy Agendas, 21 (2), 138.

Dumbly, E. (2020). Cannabis Normalization Among Young Adults in a Nigerian City. Journal of Drug Issues, 50 (3), 298.

Lind smith, A. (1940). The Drug Addict as a Psyhopath. American Sociological Review, 5 (6), 914.

Parker, H., Measham, F. & Aldridge, J. (1995). Drugs Futures. Changing Patterns of Drug use Amongst English youth, Institute for the Study of Drug Dependence, London.

Parker, H., & Egginton, R. (2002). Adolescent Recreational Alcohol and Drugs Carers gone Wrong. Developing a Strategy for Reducing Risks and Harms. International Journal of Drug Policy, 13 (5), 419-420.

Parker, H. & et al. (2002). The Normalization of 'Sensible' Recreational Drug Use. Further Evidence from the North West England Longitudinal Study. Sociology, 36 (4), 942-943.

Shildrick, I. (2001). Illicit Drug Use and the Question of Normalization. Journal of Youth Studies, 5 (1), 46.

Shiner, M. & New burn, T. (2000). Taking Tea With Noel: The Place and Meaning of Drug Use in Everyday Life, in Nigel South (Editor), Drugs: Cultures, Controls and Everyday Life. Sage Publication, London.

Sznitman, S. (2008). Drug Normalization and the Case of Sweden, Contemporary Drug Problems, 35, 449-451.